الخيال العلمي في الأدب رواية" أمين العلواني" لـــ: فيصل الأحمر- أنموذجا-

الأستاذة: نهـــاد خلـــوف
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة

سنحاول في هذه المداخلة أن نبين كيف استلهم" **فيصل الأحمر**" الواقع والخيال من خلال جمعه بين الواقع الراهن استشراف المستقبل ليجعل من روايته فضاء متخيلا امتزج فيها الأدبي والعلمي، الواقعي والخيالي، وكيف ظهر ذلك من خلال المتن الروائي، ليجعلنا أمام ما يسمى بأدب الخيال العلمي.

بداية وقبل كل شيء تجدر الإشارة إلى أن الخيال العلمي أو ما يسمى بالخيال الافتراضي قد ارتبط بمجال الأدب، حيث جاءت نشأته مقترنة اقترانا وثيقا بها يحدث في الحياة اليومية من إسقاطات واستقطابات مست حياة الإنسان المعاصر بمختلف ظروفها وصروفها فكان تبعا لذلك حتمية ضرورية ولدت من رحم التطورات العلمية التي مست الحياة في مناحيها العديدة، وهو ما ولد لنا نظرة استشراقية أو مستقبلية، تسمح للروائي مثلا بإمكانية الانتقال أو الارتحال في الزمن ذهابا وإيابا، حيث عدّت حركة الزمن إلى جانب كل من عالم الفضاء، والمخلوقات غير البشرية ونهاية العالم وما فوق الإنسان، والأسلحة الفتاكة، ووصف الاختراعات كلها موضوعات تجعلنا نحكم على رواية ما بأنها تنتهي إلى ما يعرف بأدب الخيال العلمي.

ولكن علينا أن نطرح سؤالا جوهرا هنا ما المقصود بأدب الخيال العلمي؟

إن أدب الخيال العلمي" أدب مملوء بالخيال يقوم على اكتشافات علمية أو تغيرات بيئية مفترضة ويعالج عادة رحلات إلى الفضاء أو الحياة على الكواكب الأخرى إلخ".[1]

وعليه فإن الأدب لا يخلو من الخيال، فأي جنس أدبي مهما كان نوعه إلا ويقر إن عليه كسمة بارزة وعلامة فارقة تصنع قراءته وتميزه عن باقي أنواع القول المختلفة، ولكن

انفتاحه على التقنية والآلة، أي بصفة عامة العلم جعلتنا أمام نوع جديد من أنواع الكتابة الإبداعية ألا وهو **أدب الخيال العلمي**، هذا الأخير الذي جاءت معظم التعاريف التي تناولت مفهومه تكاد تكون موحدة، لأن جل الباحثين قد انطلقوا من الفرضيات نفسها، فقدموا تعريفاته انطلاقا من الموضوعات التي يحتويها والأهداف التي يصبو إليها فمثلا نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما جاء به" مجدي وهبة" الذي ذهب إلى أنه:" يعالج بطريقة خيالية استجابة الإنسان لكل تقدم في العلوم والتكنولوجيا".[2]

وبالتالي فالتطور العلمي الحاصل في شتى مناحي الحياة قد أفرز لنا ما يسمى " بأدب الخيال العلمي"، أين استطاع من خلاله الأدب أن ينفتح على شتى التطورات والتغيرات، ويستفيد من منجزات" التقنية" أو" العقل الأداتي" باصطلاح يورجن" هابرماس".

كما يستحسن بنا أن نشير في أن من بين الباحثين من اعتبره يقوم على" نوع من المصالحة بين الأدب والعلم، أو على الأقل الجمع والتوفيق بينهما(...) فالكاتب يستخدم العلم منطلقا بخياله الأدبي، يحلق في آفاق مستقبلية، يدفعه الطموح إلى تفسير الظواهر الغامضة في الطبيعة أو في النفس البشرية، ومن هنا نشأت الأساطير التي هي نوع من أدب الخيال، وولدت ضرورة تعويد النشء على التفكير العلمي الذي يحول الناشئ إلى مبدع حقيقي".[3]

ولعل هذا ما جعل الكثير من القصص والروايات تتنبأ بالكثير من الاختراعات في القرن العشرين من الطائرة إلى الغواصة إلى الهبوط على سطح القمر، وهو ما فتح المجال أمام إمكانية ريادة لون جديد من الأدب.

كما يمكننا أيضا تحديد اتجاهات أدب الخيال العلمي في اتجاهين رئيسيين:

1- اتجاه يعتمد على الفكر الفلسفي، ويمكن أن نمثل له بأدب(اليوتوبيات) المثالية، منذ أفلاطون وحتى كابيه، وهو إتجاه إنساني يوظف الفكر في خدمة الإنسان، ويدعو إلى حل مشكلاته الاجتماعية والحياتية فيشجب القمع والاستغلال.

2- اتجاه يعتمد على الفكر العلمي، ويمكن أن نمثل له بما كتب حول فيرن الذي يقول: (لقد بنيت دائما رواياتي على أساس الحقائق واستخدمت في صناعتها طرقا ومواد ليس فوق مستوى المعلومات.

وهناك تيار في هذا الاتجاه العلمي يقوم على التنبؤ ويتوقع الإنجاز الحضاري الجديد، فقد تم توقع اكتشاف القنبلة الذرية مثلا قبل اكتشافها، وتوقع هبوط الإنسان على القمر قبل أن يتم ذلك فعلا".[4]

وبناء على ما سبق فللخيال العلمي اتجاهان بارزان أحدهما يقوم على منطلقات فلسفية محضة، وأما الآخر فيستند على مرتكزات علمية.

ولا نود التوسع في هذه الأسطر شبه النظرية، ولكن رغم ذلك ينبغي علينا التنويه إلى أن دراستنا هذه ستحاول الوقوف على الخيال العلمي داخل الرواية، خاصة وأنها تعد من أكثر الأشكال الأدبية والفنية ذيوعا وتداولا في عصرنا، ويرجع ذلك إلى قدرتها على استقطاب القارئ لما تمتلكه من طابع سردي مشوق يعمل الكاتب على سبكه وحبكه بطريقة فنية منتقاة، يستطيع الراوي من خلالها أن يصول ويجول في عوالم مختلفة منها ما هو خيالي ومنها ما هو واقعي، بل وأكثر من ذلك فإننا قد نلمح أن هذه الحقائق والخيالات نفسها قد أخذت بعدا آخر، واكتست حلة أكثر إثارة في شكل قد يتجاوز الواقع الراهن إلى الخيال المتوقع، ليصبح النص الروائي من هذا المنظور يحتوي في كنهه على العديد من الخصائص الأدبية واللغوية، الواقعية والتخييلية، إضافة إلى أن المتمعن في العمق الدلالي والفني لمختلف الأشكال السردية ومن بينها الروائية يتراءى له أن هذا السبك الأدبي داخل هذه النصوص لم يكن اعتباطيا أو عفويا، بل هو في حقيقة الأمر قصدية فنية، وظاهرة أسلوبية تتعدى طريقة الكتابة في الإبداع العربي القديم، سواء على مستوى التصوير أو التحوير.

ولهذا يمكن القول أن روايات ما بعد الحداثة في مجملها قد كسرت النمطية المتوارثة في الكتابة الروائية لتنفتح هذه التجربة على آفاق جديدة وطرق حديثة، تعتمد أساسا على عنصر" **التجريب**" الذي تسعى من خلاله إلى إبراز نظرة شمولية يعبر من خلالها الكاتب عن تجربته، فمنهم من عبر عن ضياع الانتماء وغياب الهوية الجامعة، ومنهم من سلك طريقا آخر مغايرا من خلال تطرقه لموضوعات جديدة لم يكن للأدب عهد بها كموضوع" أدب الخيال العلمي" مثلا باعتباره حتمية لابد منها من أجل ملامسة ظلال الحداثة، هذه الأخيرة التي لا يكاد الفن يخلو منها من خلال ارتكازه على أطيافها وأشباحها الهاربة والهلامية كخلفية مفهومية من جهة، وحتمية وجودية من جهة أخرى.

ويأتي الروائي" **فيصل الأحمر**" في طليعة هؤلاء من خلال روايته" أمين العلواني" التي تمثل نمطا مغايرا وطرحا جديدا في التعبير والكتابة سواء من حيث الموضوع أو الطرح، إذ يحاول من خلالها الكاتب إبداء نزعته التجريبية، وكأنه قد ملّ وقرف من الأشكال السردية المتداولة، والأفكار المتوارثة، والموضوعات البالية، والأساليب الفنية الراكدة التي غاب عنها بريقها، حيث جاءت الرواية استشرافا للمستقبل، أو رؤية لما سيأتي، فهو يطمح من خلالها إلى هدم معالم الواقع الفوتوغرافي التعيس، وإيجاد بديل له، ولعل هذا ما جعله يسعى إلى المساهمة في تشييد أعمدة مغايرة، تتعدى المتوقع إلى ملامسة الخيال، في ضياع كلي للحدود بينهما، فتصاغ معالم جديدة بأبعاد مغايرة، تتدخل فيها الأهواء والأذواق والرؤى، وهو ما يمكن أن نصطلح عليه هنا" **الواقع بتصرف**" خاصة وأن " القص ما بعد الحداثي يحاول أن يقرأ الواقع كما هو بكل تشظياته وتناقضاته وينقل صراعات الشخصية الفكرية والنفسية".(5)

وبالتالي فإن الكاتب قد تمكن من تشكيل عالم روائي خاص به، يحمل تجربته كمواطن، كما تجلى فيه صوتا ذا فرادة، حاول من خلاله تحرير الرواية العربية على وجه العموم والجزائرية على وجه الخصوص، من هيمنة التقليد المنبعث من ثناياها والمبثوث في أعماقها، ومن ذلك الأسلوب الرتيب الذي يسجن الذات المبدعة في عالم التقليد والقهر الفني.

1- أمين العلواني خيال علمي أم قراءة مستقبلية؟

لقد انطلق الروائي من سؤال جوهري أين يبدأ الخيال كي يتوقف الواقع؟ وأين يتوقف الواقع فيبدأ الخيال؟ خاصة وأن الخيال العلمي كثيرا ما يرتبط بتلك القصص التي تتخذ من العالم العجائبي والغرائبي، بما يتضمنه من موضوعات فنتازية مادة له فالمخلوقات الغريبة أو الخوارق أو حتى الارتحال حول الأزمنة بواسطة آلات عجيبة أو تدور حول أحداث يصعب على العقل البشري تصديقها، ولكن" **فيصل الأحمر**" في روايته" أمين العلواني" قد حاول إعطاء لمحة عن المستقبل المحتمل وكأنه زرقاء اليمامة تعود مرة أخرى لتتنبأ بمستقبل النخبة المثقفة في الجزائر، وما ينتظرها في المستقبل القريب.

ولهذا كانت هذه الرواية نسيج مترابط تدور أحداثه في الزمن الآتي كما يحلو للكاتب أن يتصور مجرياتها، وهي رواية جمعت أشتات مختلفة من فنون القول، فانفتحت

على مختلف الأجناس الأدبية وغير الأدبية، كالمذكرات، البيبليوغرافيا، الشعر، والتسجيل بالكاميرا، القصة.

وعليه عدت هذه الرواية نموذجا حيا للسردية العربية المتميزة التي احتوت حداثة سردية من خلال ارتكازها على موضوع جديد، حاول من خلاله الروائي بلورة فكره الفردي، وكذلك الجمعي من خلال سفره و تنقلاته ومحاولة ربطه بين عوالم شتى كربطه بين الماضي والحاضر، أو مقارنته بين المعنوي والحسي، إضافة إلى ربطه بين الخرافي والأسطوري من جهة، والواقعي من جهة أخرى، فروايته يتجاذبها حبلان: حبل الواقع وحبل الخيال" فأن تكتب رواية علمية معناه أن تواجه الواقع وألا تهرب منه أبدا... معناه أن تكون حذرا، لأن الواقع في خ ع متحرك دائما، حقيقي حياة (...) أن تكتب رواية خيالية علمية معناه أن تتحلى بشجاعة وجرأة معينة، لأن ما يتخيله الواحد منا حول شكل المستقبل غالبا ما يأتي المستقبل ليظهر سخافته وضعف مخيلة صاحبه".(6)

فالكاتب مهما تعالى لا يستطيع مفارقة الواقع على الرغم من أنه يتعداه إلى أبعد من ذلك ولذلك ذهب،" رولان بارث" إلى أن الإنتاج الأدبي ليس انعكاس للواقع بل هو انعكاس اللاانعكاس في المسافة القائمة بين الواقع وشكل انعكاسه فهو يجعل" جملة من العناصر المعقدة تتضامن وتنتج آثارا إيديولوجية معينة، فالكاتب لا يكتب إيديولوجيا بل يعكس شكل مباشر جملة من تناقضات اجتماعية تحت تأثير إيديولوجيا اجتماعية معينة".(7)

وهذا بالضبط ما حاول" **فيصل الأحمر**" إبرازه في هذه الرواية، ويشاطره الرأي فيما ذهب إليه" جوليان غريماس" عندما اعتبر أن إيديولوجية النص" لا تكمن في مرجعياته وإنما في طاقاته على تغير الدلالات الأصلية المشحونة فيه".(8)

ولعل هذا بالضبط ما يفسر البعد الإبداعي والفني للأعمال الإبداعية والذي نلتمسه داخل المتن الروائي من خلال ربط الروائي بين شخوص" الواقع" وشخوص" الخيال"، أو بين" **فيصل الأحمر**" الكاتب المغمور و**أمين العلواني** الكاتب المشهور" **أمين العلواني** اسم يملأ الدنيا ما إن تفتح مواقع الأدب الخاصة بالمبتدئين حتى يقف إلى أذنك وعينك اسم العلواني... **أمين العلواني** كثير من النقاد والاحداثيين المهتمين بترتيب الأحداث (...) وبعضهم يقول أنه نابغة زمانية".(9)

ربما ذلك الاهتمام بالشخصية داخل العمل الإبداعي هو ما دفع بالدكتور" عبد المالك مرتاض" إلى الذهاب بعيدا عندما اعتبر أن" الشخصية" هي" العالم الذي يتمحور حوله كل الوظائف والهواجس والعواطف والميول".[10]

ولذلك فإننا من خلال" الشخصية" التي هي" أمين العلواني" هنا سنتمكن من رصد ملامح المجتمع المستقبلي الذي حاول من خلاله عرض الوضع الإنساني فيما سيأتي من الزمن، إنها ملامح لا تثير إلا الرغبة في حياة أفضل، والتمرد على الواقع، مما جعله يطل على نافذة المستقبل، ويحاول من خلالها(الشخصية) إفراغ مكبوتاته من خلال خلق شخصية موازية له، فيقدم لنا ملامح الإنسان المثالي الذي سيقوم على أنقاض الإنسان القديم.

زيادة على أن الأجواء المستقبلية المخيمة على عالم الرواية والتي أخذنا إليها " **فيصل الأحمر**"، موظفا ما أتاح له خياله من اختراعات إن صح التعبير، والتي قدمها لنا دون الغوص الدقيق في وصفها وكيف تعامل معها الكاتب، حيث يصور لنا في" أمين العلواني" مجتمعا مستقبليا يبدأ من ميلاد الشخصية البطلة سنة 2017م، موضحا لنا التطور التكنولوجي الحاصل على حياة الإنسان الذي سيولد في المستقبل، مبينا كيف تغيرت طرق الكتابة مثلا" وتغيرت طرق الكتابة على زمان العلواني فكان مرتاحا جدا لذلك المكروفون العاقل الذي يملي عليه نصوصه فيكتبها ثم يأمره بمحو الكلمة فيفهمه المكرفون ويمحوها ويستبدل الجملة بالجملة وهو مستلق على ظهره في قاعة الكتب وظهره سريره المائي وعيناه تقرآن ما يمليه لسانه على المكرفون مرتبط بعقل آلي ينقل الكلام الملقى مباشرة إلى الجدار إلى أمامه".[11]

وكلها تعكس ملامح الثورة التكنولوجية التي ستجتاح العالم في المستقبل أين ستحل الآلة محل الإنسان، فتعمل على تبديد ذهنه، وتحويله إلى مجرد لعبة، لدرجة أن" الروائي" قد جعل من شخصية" العلواني" تجهل الكتابة على الورق،" فالعلواني بدأ الكتابة المختصرة مع ظهور هذا النوع من المكاتب بل إنه يكاد يجهل الكتابة على الورق لكونه لم يراها تماما ولم يمارسها إلا قليلا في المدرسة من باب التكوين والتعلم، وكان شكل الحروف على الحائط يتغير بأمر من حنجرته(خط/ كوفي) فيتغير المكتوب على الحائط، وتثير الأشكال الظاهرة مخيلة الكاتب إذا صعبت عليه مواصلة الكتابة خلفية بحر، وتجد الجمل تسبح على

البحر وتتموج(موسيقى، باخ، فتتهاطل موسيقى الربانية على الجدران وتملأ نفس العلواني".[12]

وكأن هذه نظرة استشرافية ستقضي على كل العراقيل التي تعترض سبيل الكتاب، أين سيتم الاستعانة بالتكنولوجيا وما تطور الكتابة إلا أعجوبة من أعاجيب التقدم التكنولوجي في العالم المستقبلي، حيث ستتراقص أنوار التطور فالمكروفون كآلة يعد صورة دقيقة سيصل إليها العالم في المستقبل فلعقل" العلواني" الكبير مجموعة من العقول الصغيرة التابعة له، تقوم بمساعدته، وأبرز ما ميز به الكاتب هذا الجهاز هو التطور العلمي الهائل الذي اتّسم به، والذي يعد في وقتنا الحالي ضربا من الخيال، فالمكرفون قادر على الانصياع لأوامر الكاتب كاملة، كما له القدرة على محو أي كلمة.

2- أمين العلواني/ المستقبل/ اليوتوبيا المثالية:

لقد حاول الروائي من خلال شخصية" أمين العلواني" أن يربط بين المستقبل ذلك العالم المجهول الذي يرانا ولا نراه حيث أننا عادة ما نجد أن المستقبل في الرواية مستقبلان: مستقبل يصبح من نهاية الرواية ماض ومستقبل يظل إلى النهاية مستقبلا، أما الأول فعلاقة الأنا معه دائما كانت علاقة خوف منه وأما الآخر فتتطلع إلى اكتشافه، وهو ما نجده في هذه الرواية، أين اعتبر" **فيصل الأحمر**" المستقبل= اليوتوبيا الميثالية هذه الكلمة التي تعني في الإغريقية" المكان الحسن ويبدو أن توماس مور، في القرن السادس عشر، هو الذي أوجد الكلمة ولكن بمعنى مستحيل الوجود (...) يقول أناتول فرانس" لولا أحلام الفلاسفة في الأزمنة الماضية لكان الناس يعيشون إلى الآن كما كانوا يعيشون قديما عراة، أشقاء في الكهوف، لقد كان إنشاء أول مدينة خيالا من أخيلة المفكرين في الخيال هو مبدأ التقدم وفيه محاولة إيجاد مستقبل أفضل للإنسان".[13]

وبالتالي فالمستقبل هو دائما الملجأ الذي يطمح الإنسان إلى البحث عن حياة أفضل فيه" وكان أول شيء يبدأ به حياته الأدبية هو تحرير يوميات مفصلة يتعرض فيها إلى أهم ما مر به متحللا بالتفصيل إلا أنه سرعان ما كان يجد صعوبة في السير إلى الأمام والذهاب بعيدا في مشروعه، ووجد ما يحدث له في أيام الدراسة متشابها بحيث يصعب أن تكون يوميات الأيام السبعة مختلفة".[14]

فدائما ما يسعى الإنسان إلى خط مستقبل سعيد، وهو ما جعله يفر من واقعه متجها نحو المجهول الذي يتمنى أن يكون أحسن من حاضره، فيحاول رسم صورة جميلة عنه وكأنه مدينته الفاضلة الميثالية التي سيجد فيه كل ما هو مطلق" وكان العلواني يقضي أوقاتا طويلة في جمع ما يسميه أدوات التهييج أو ما يسميه أحيانا الدماغ الثاني، أو عرفتي العزيزة أو ملائكة الأدب أو جنون وادي عبقر أو المخدرات المسموح بتناولها كان يقضي أوقاتا طويلة في جمع هذه المؤشرات البصرية الحسية والسمعية، وكان من حين لآخر يركب جهازا بيئيا جديدا من تلك الأجهزة التي تبعث الروائح أو تغير نوع الرطوبة في الجو أو تتهكم بطريقة اعتباطية في الألوان كلها داخل الغرفة[15]".

وعليه فصورة" أمين العلواني" تعكس لنا الرغبة الجامحة التي تحياها الذات" **فيصل الأحمر**" حيث تسعى إلى تحقيق طموحاتها ومراميها المكبوتة عن طريق الحلم، والتطلع إلى مستقبل تسوده يوتوبيا مثالية تسمح لها بتحقيق ما عجز الحاضر عن تحقيقه. وكأن الذات هنا قد انتقلت داخل الرواية من حالة الشوق والرغبة إلى حالة التحقق والمعاينة، فالمهم هنا هي النتيجة التي ينتهي إليها هذا الانتقال أو التعبير الناتج عن الانتقال نفسه.

ولهذا كان" الروائي" صورة حية عن الذات التي تعي ذاتها وتكتب عنها، والصوت الذي يبحث عن معناها والقلم الذي يسافر ليجد أنثاه، إنه الكائن الذي ينقب عن نظيره الذي لا ينعكس إلا من خلال الكتابة، واكتساح عوالم المجهول" كان مشكل العلواني وهو يكتب عن" **فيصل الأحمر**" هو السؤال الذي سكنه طوال حياته حول جدوى الكتابة... وهو أيضا السؤال الذي جعله يقلع عن الكتابة عشر سنوات أو أقل قليلا[16]".

ولعل هذا ما جعل من" أمين العلواني" بطل يقود الذات" **فيصل الأحمر**" صوب المجد، الذي عجز هذا الواقع عن تحقيقه، فكان تبعا لذلك" الأحمر" هو الكنز الضائع الذي ستبحث الأجيال عنه في ماضي الأجداد أما" العلواني" فهو المستقبل الموعود والفردوس المفقود، إنه ببساطة الحلم المنشود الذي يراود الروائي عن نفسه، ومن ثمة كانت" الرواية لا تقول ما تريد قوله بواسطة الأسلوب الفردي للكاتب لكن بواسطة مزج كامل لأسلوبه بأسلوب الشخصيات التي يرسمها[17]".

وبناء على ما سبق كانت شخصية" أمين العلواني" شخصية افتراضية تعادل شخصية حقيقية هي شخصية" **فيصل الأحمر**" والتي لا تتوارى في سعيها بحثا عن توازن لم يتحقق إطلاقا.

ولكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هنا: هل هي الصورة التي حاول" **فيصل الأحمر**" أن يرسمها عن ذاته قبل أن يموت أم أنها النافذة الداخلية التي نسافر من خلالها إلى أعماقه؟

فكأننا انطلاقا من هذه الأسئلة سنتوصل إلى أن" **فيصل الأحمر**" هو الإنسان الذي قهره الواقع، فصار يرى أنه خلق في غير زمانه مما دفعه إلى إعادة قراء ته، لكن هذه المرة ليس باعتماد لغة واضحة، وسرد مباشر، وأساليب صريحة معبرة عن الأزمات فحسب، وإنما انطلاقا من رؤية شمولية تتسامى عنه وتطمح إلى ما هو أفضل منه، وبالتالي تتخذ من المستقبل ملاذا لذلك.

ولهذا يستحسن بنا أن نشير إلى أن الكاتب في هذه الرواية قد مرر الكثير من الرسائل المشفرة المليئة بالحزن والأسى وكذلك التشظي الداخلي الذي يعاني منه المثقف والكاتب في وطننا، مما جعله يلجأ إلى نظرة استشرافية، إلى **أمين العلواني** كمعادل موضوعي يحتوي" **فيصل الأحمر**" الذات المغارة، التي عجز من حوله أن يفهموها.

إنه يحاول الارتحال في الزمان، في المكان، في الذهن، رحلة داخلية خارجية، حقيقية مجازية، وكأنه يحسن لعبة المرايا القائمة على الخفاء والتجلي، الثبات والتحول عن طريق المخيال التكنولوجي، الذي" يعبر بطريقة بديعة عن أساطير يبتلعها الإنسان المعاصر"(18).

وتبعا لذلك كانت رواية" أمين العلواني" تتعدى كونها مجرد نص كلاسيكي صاحب لغة سطحية تقريرية، بل جعلها تتغذى من منابع فلسفية أهلتها لأن تكون رواية فلسفية تأملية استقاها صاحبها من الشك النتشوي حيث أن" نيتشه" كما هو معلوم قد شك في الآلة، والمعارف التجريبية، وفي مختلف أشكال اليقينيات، التي كانت الحضارة الغربية ترتاح إليها،" كان الفيلسوف القديم نيتشه يقول إن العدد الحقيقي ليس الباطل أو الكذب بل القناعات والعقائد الجاهزة لهذا" أود أن أشير إلى أن كل ما ذهبت إليه أو وصلت إليه أثناء رحلتي يبقى محتملا للخطأ"(19).

فالشك في قدرة الحاضر على تحقيق المطالب هو ما ولّد في نفس الروائي الهروب إلى المستقبل.

ولهذا لو تسائل قارئ وقال هل رواية" أمين العلواني" هي رواية ذات دور ريادي ستكون الإجابة بنعم، لأنها تمكنت من طرف جملة من الأسئلة التي سبق وأن واجهتها الحداثة، إنها نص مفعم بخلفيات جمالية ودلالية عميقة، بحيث انفتحت على المستقبل والمجهول إنها نص مليء بالاكتشافات حيث أن أحداثها فيها الكثير من التفكك والابتكار والانفلات من أسر المألوف والمعقول.

وبناء على ما سبق يمكن رصد ذلك من خلال الشخصيات في الرواية حيث عكس الحوار الذي دار بين كل من" **فيصل الأحمر**"، الشخصية الواقعية و**أمين العلواني** الشخصية المتخيلة صراع بين العالمين الواقعي والخيالي(الواقعي= **فيصل الأحمر**، الخيالي= أمين العلواني)،" **العلواني**":" والأحمر غاضب دوما... مكثر على أنيابه... سلاحه في يده الجميع يحرمون... والأديب عدو في مملكة الممكن... والعلواني اليوم تحقيق للعلواني الافتراضي الذي كان ينعم ربما سينعم بما لم يرم الزمان به إليه.

الأحمر:

بالمشاعر... (صوت إضافي الليل في الغابة) فتبعث أصوات خلفية تتماوج حسب إيقاع المقطوعة الموسيقية المؤداة... ومع كل أمر يتغير الزمان والمكان بتغير إحساس العلواني بهما وتنشأ جمل جديدة"[20].

ولعل الملاحظ هنا أن شخصية" أمين" مرتبطة بالأمانة فعلا خاصة وأنه القرينة الدالة التي ستجعل من" **فيصل الأحمر**" حيا حتى بعد موته، فهو يحمل إلى الأجيال اللاحقة رسالة خالدة، هي رسالة الكاتب المغمور الذي كتب له أن يموت قبل أن يحقق أهدافه ومراميه عن طريق" الكتابة"، فهو الكاتب الذي انكسرت أحلامه وقهره الواقع.

3- الكتابة/ الخلود/ استشراف المستقبل:

عالج الكاتب جدلية الموت والتراجيديا الإنسانية وكأن الذات الأحمرية في هذه الرواية تبحث عن سؤال جوهري سكن فردوسها المفقود وتغلغل في أعماق الوجود والموجود، هو سؤال الموت والمصير هذا السؤال الذي شغل المفكرين قديما وحديثا، وهو عبارة عن صراع ترعرع ونما في نفس الروائي، حتى صار يشكل له قلقا وجوديا، ليحرك

بداخله الشعور بالخوف، خاصة وأن الموت" نقيض الحياة، فساد الحياة، مرادفا للعدم/ الجسد وغير ذلك[21]".

فالإنسان منذ القديم حاول الإجابة عن تساؤل مؤداه ما الذي يستحق الحياة الكراهية الحياة أم الموت؟ أم هما معا؟ كما تساءل أيضا عن مكمن الشقاء والحزن أهي متجدرة في الحياة أم الموت؟

لقد أدرك" **فيصل الأحمر**" أن الموت يقف بينه وبين أهدافه، لأنه يعني زواله وفناءه، لهذا راح يبحث عن أساليب تمتلك قدرة وفعالية على قهر شهوة الموت، خاصة وأن الموت" أول هم في التاريخ الإنسانية والخوف منه هو أول خوف عرفه القلب الإنساني مما دفع آدم إلى أداء المعصية دفعه إلى شجرة الخلد طمعا في ملك لا يفنى فأغضب الله من حيث عصاه ثم تاب الله على آدم وأنزله الأرض بهيئة جديدة للحياة وبرنامج غير ما أعدّه في الفردوس حيث راودته فكرة الخلود"[22].

وبالتالي فالتمسك بالحياة مطلب غريزي، لأن الإنسان بجبلته يرى أن الموت شيء ليس كمثله شيء، إنه مرض عن الأمراض الأبدية التي لا دواء لها، وهو أسوأ ما يصادف الإنسان في رحلته رغم أننا في ديننا الإسلامي نجد أنفسنا خاضعين لفكرة" القضاء والقدر"، فالإنسان مقدر له أن يعيش فترة من الزمن مرتحلا بين دروب الحياة، متقلبا بين ظروفها وصروفها، فهو فان وجسده زائل، فسؤال الموت والمصير يراود الروائي عن نفسه ليطرح من خلاله فكرة مرتبطة بافتناء الوجود مما جعله يلجا إلى" الكتابة" بعدّها رسالة حضارية نبيلة والإنسان المبدع هو في حقيقة الأمر حامل لرسالة سامية حيث يمارس وجوده بوعي وفي الوقت نفسه يقوم" بنقد صادق بناء غايته التغيير إلى ما هو أصلح وبالتالي فالكتابة تبشر بالخير وتزرع الفرح والمحبة وتفضح الظلم والعدوان والقهر"[23].

كما أنها من جهة أخرى وسيلة من وسائل الخلود، فهي توثيق فكري وإضاءة مستقبلية للآتي، هي تجربة في البقاء تتضمن استحضار صاحبها الغائب ليصبح من هذا المنظور" وعي بالمستقبل بوصفه قضية إنسانية، لأن المستقبل جزء من كينونة الإنسان التي تتحرك دوما بين قطبين الماضي وما به من خيرات توجه الأنا وتشكل ملامحها الأساسية، والمستقبل هو الأفق الذي توجهه اللحظة الراهنة"[24].

فالكتابة حلقة وصل تربط الماضي والحاضر والمستقبل مثلها هو حاضر عن " **فيصل الأحمر**" هنا، هذا الأخير الذي كانت بالنسبة إليه نمطا من أنماط المقاومة، حيث تستطيع الذات أن تتحدى كل ما يحيط بها، وأن تستشرف المستقبل إنها الأداة التي ستضمن له حضوره في المستقبل" بدأ اهتمام العلواني بشخصية الأحمر حينما جاءه إرسال أحد القراء مخبرا إياه بوجود كاتب عاش في الجزائر ومنذ نصف قرن لم يعلم عنه أي شيء بعدما كان قد توقف عن الكتابة في عشرينيات هذا القرن. وكان ممكنا ألا يهتم العلواني بهذا الكتاب المغمور لأن العلواني قلما يقرأ إرسالاته[25]".

ومن هنا تسعى الذات الأحمرية إلى تحقيق سعيها الكينوني في العالم، وكأنه من هنا يحاول وصف العلاقة الموجودة بين الكتابة والمستقبل، بحيث أن الفن(الكتابة) رمز للخلود، فكما يقول محمود درويش:

- هزمتك يا موت الفنون جميعها.
- هزمتك يا موت الأغاني في بلاد الرافدين.
- مسلة المصري.
- مقبرة الفراعنة.
- النقوش على حجارة معبد.
- هزمتك وانتصرت.
- وأفلت من كمائنك الخلود.
- فاصنع بنا واصنع بنفسك ما تريد[26].

إنه ببساطة يسعى إلى ما سعى إليه بطل ملحمة جلجامش في بحثه عن بنات الخلود، إذ أن" جلجامش بطل مدينة الأورك وملكها قضى حياته في الصيد واللهو والبطش بالناس منتشيا بقوته الخرافية وطاقته المتفجرة ولكنه يصحو على وفاة صديقه أنكيدو ويبصر الحقيقة المأساة التي تنتظر البشر، فيهيم على وجهه في البراري والصحاري باحثا من إكسير الحياة، وبعد أن نجح في الحصول على النبات السحري(...) فشمت الحية شذى النبات فتسللت واختطفته ثم نزعت غلاف جلدها(...) واستطاعت الحية أن تجدد شبابها بنزع جلدها كل عام[27]".

أما الروائي هنا فإنه يهدف إلى تجديد شبابه من خلال سلطة الكتابة وحدها، لينعم " بشباب دائم بلا شيخوخة ولا فناء فعاش في صراع مع الزمن وابتدع بفكره التلقائي ونظره الفطري أساطير تدور أحداثها حول إمكانية البقاء بلا وهم.

وعليه كان هاجس الفناء قد طارد الإنسان منذ القديم كما تشير الأسطورة البابلية، لكنه استطاع أن يسيطر على وعيه وتفكيره في كل زمان، وها هي الرواية المعاصرة تحتفي به، بل واصبح الروائي يبحث عن سبيل الخلاص منه من خلال التنقيب عما يضمن له لذة الخلود الأبدي، والذي وجد نشوته من خلال الكتابة، لأن مرور الزمن لا يوحي له بالوجود وإنما يوحي له بالعدم، فمع مرور كل ثانية يتحول الحاضر إلى ماضي وبالتالي الإنسان يخسر دقائق الوجود و الحياة ويدنو أكثر فأكثر من الموت فما حياة المرء إلا دقائق وثواني فكما يقول الشاعر:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

إذن فرغبته في الارتحال في عوالم المجهول السحيق هي محاولة منه" لإشباع الفضول واستجابته، لأنانية الذات وشطحات الرغبة وارتعاشات الجسد"[28].

زيادة على أنها الكتابة هي الوسيلة التي" يصل من خلالها الكاتب إلى نصه وإلى الآخرين"[29].

ومن ثمة طريق الخلود لا يكون إلا عن طريق الفن(الكتابة) فمن خلالها يتمكن الإنسان من تجاوز أزمة النسيان، كما أن استشراف المستقبل عن طريق الكتابة يؤدي إلى تحقيق الذات لفعل الوجود الأبدي كما يوضحه المخطط الآتي:

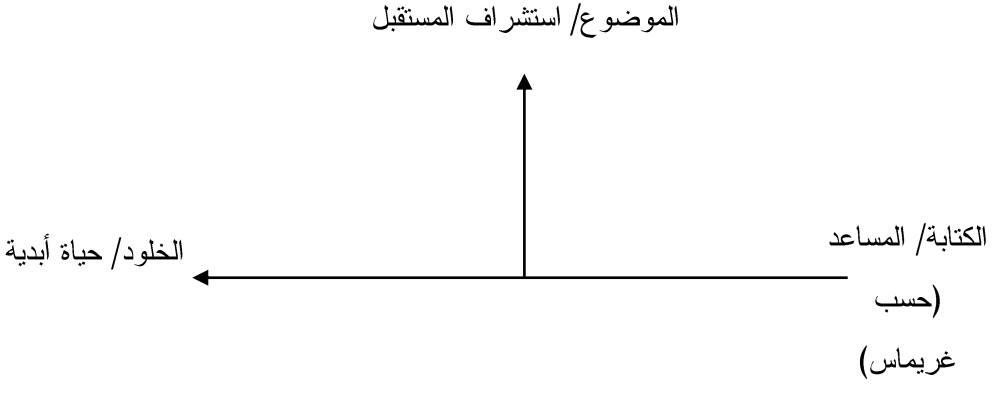

الهوامش:

(1)Science fiction hucbinsion; london, 1981, p 02.

(2) مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب، مكتبة لبنان، بيروت، دط، دت، ص 198.

(3) محمد عزام، الخيال العلمي في الأدب، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط1، 1994، ص 09.

(4) المرجع نفسه، ص 10.

(5) مصطفى عطية جمعة، ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة،(الذات، الوطن، الهوية)، الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص 34.

(6) فيصل الأحمر، أمين العلواني، دار المعرفة، الجزائر، دط، 2008، ص 07.

(7) فيصل دراج، الأدب والإيديولوجيا، مجلة طريق، العدد 05، تشرين الأول، أكتوبر، 1979، ص 45.

(8) سمير مرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية النصوص، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ديوان المطبوعات الجامعية، دت، دط، ص 118.

(9) فيصل الأحمر، أمين العلواني، ص 10.

(10) عبد الملك مرتاض، القصة الجزائرية المعاصرة، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1990، ص 45.

(11) فيصل الأحمر، أمين العلواني، ص 45.

(12) المصدر نفسه، ص ن.

(13) محمد عزام، الخيال العلمي في الأدب، ص 28.

(14) فيصل الأحمر، أمين العلواني، ص 14.

(15) المصدر نفسه، ص 45.

(16) المصدر نفسه، ص 43.

(17) حميد الحميداني، أدبية السردبين بلاغة الصورة والمنظور السردي، مجلة بلاغات محور: بلاغة الرواية، مجلة متخصصة في تحليل الخطاب تصدر عن مجموعة من الباحثين في البلاغة والادب، القصر الكبير، المغرب، ج1، شتاء 2009، ص 29.

(18) عزة غلام، الإبداع الفني في قصص الخيال العلمي، مكتبة الأنجلومصرية، مصر، 1998، ص ص29-30.

(19) فيصل الأحمر، أمين العلواني، ص 11.

(20) المصدر نفسه، ص 46.

(21) أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، عالم المعرفة، الكويت، دط، 1989، ص 13.

(22) كاميليا عبد الفتاح، إشكالية الوجود الإنساني دراسة نقدية تطبيقية في الشعر الواقعي والحداثي، دار المطبوعات الجامعية، دط، 2008، ص 168.

(23) بشير يخلف، الكتابة في البوح والإمتاع، مجلة ثقافة ع3، 4 مارس 2004، ص 35.

(24) المرجع نفسه، ص 37.

(25) فيصل الأحمر، أمين العلواني، ص 42.

(26) محمود درويش، الجدارية، دار النشر رام الله، فلسطين، دط، 2013م

(27) كمال صفوت، مفهوم الزمن بين الأساطير والمأثورات الشعبية، ص 520.

(28) المرجع نفسه، ص 516.

(29) أمينة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل، 2006، ص 170.